ترجمات | قسم الفلسفة والعلوم الإنسانية | 21 فبراير 2023

# التفكير النقدي، والثقافة العلمية، والممارسات الفلسفية الجديدة

أوليفيي سارتوناير
ترجمة: عبد الله كسابي

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2023
All rights reserved © 2023

# التفكير النقدي، والثقافة العلمية، والممارسات الفلسفية الجديدة[1]

تأليف: **أوليفيي سارتوناير Olivier Sartenaer[2]**

ترجمة: **عبد الله كسابي**

1 العنوان الأصلي:

Esprit critique, culture scientifique et nouvelles pratiques philosophique, Diotime (Revue internationale de la didactique et des pratiques de la philosophie), N° 91, Mai 2022

2 أوليفيي سارتوناير Olivier Sartenaer مكلف بتدريس الفلسفة بكلية العلوم، جامعة نامور Namur ببلجيكا.

**ملخص:**

يروم المقال المترجم إثارة الانتباه إلى نموذج بديل للتربية على التفكير النقدي، ونشر وإشاعة الثقافة العلمية، لا يقوم فقط، على نقل المعارف والنتائج العلمية ونشرها بين الجمهور، بل على التربية على الإبستيمولوجيا؛ أي على تملك معايير التمييز في المعارف بين علمية وغير علمية؛ وهذا ما يمكن أن تنهض به الممارسات الفلسفية الجديدة.

إن عالم اليوم تسمه غزارة في المعرفة ومصادرها؛ فالمعلومة ترد من حدب وتأتي من كل صوب، كما تسم هذا العالم، على مستوى العلم، نزعة تخصص بلغت حدودا يعجز معها العالم المتخصص عن الإلمام بالفرع من تخصصه؛ وفي الآن نفسه ترتفع الأصوات صادحة بالحاجة المجتمعية الماسة إلى التربية على التفكير النقدي وأيضا إلى نشر الثقافة العلمية بين الجمهور، نظرا لما هذا الأمر من وقع إيجابي على تدبير الشأن العام بالصورة الأفضل والأنجع.

تعطي هذه الحاجات والمتطلبات الجديدة موقعاً مشروعا واستراتيجيا للممارسات الفلسفية الجديدة، التي من شأنها أن تلعب دورا رياديا في التربية على التفكير النقدي وإشاعة الثقافة العلمية، من خلال مسالك متعددة، يركز المقال المترجم منها على مسلك تنمية التفكير النقدي إزاء المعارف التي تدعي العلمية بالاستفادة من أبحاث الإبستيمولوجيين المتعلقة بمعايير المصداقية الداخلية والخارجية للمعارف العلمية، والتي يمكن أن تكون مادة خصبة ومتميزة للأشكال الجديدة من التربية الفلسفية.

## تقديم:

أضع كهدف رئيس، لهذا المقال، الدفاع عن أنّ الممارسات الفلسفية الجديدة -التي ما تزال أنماطها في حاجة إلى البلورة جزئيا - تمثل رافعة فعالة للتربية العلمية؛ وإذن، لنشر الثقافة العلمية. ويشكل هذا النص، الذي ينطلق من مفترض (ليس مستدلا عليه هنا) مفاده أن مستوى متوسّطاً أفضل من الثقافة العلمية، يفضي إلى تدبير أفضل للشأن العام (على الأقل فيما يخص الإشكاليات ذات الطبيعة العلمية)، يشكل إشادة بالاستثمارات المجتمعية الاستراتيجية في الممارسات الفلسفية الجديدة.

ومن أجل بلوغ هذا المسعى، أقترح بداية حصر حدود المسلمة التي مفادها أن «التفكير النقدي أمر حسن». وأنشد خاصة، التوصيف الإيجابي لمفهوم التفكير النقدي وبيان رهانه الرئيس (العنصر 1.1). وهذا قبل تحديد رافعات الدعم الرئيسة المترابطة فيه من منظورات تربوية مختلفة (العنصر 1.2). وعلى هذا الأساس، سأقيم، عقب ذلك، الفرضية التي بحسبها تكون الثقافة العلمية بالأساس نمطا خاصا لممارسة التفكير النقدي (العنصر 2.1). وبعد بسط التوجهات الرئيسة للبحث التي تكشف عن الأدوات الإبستيمولوجية الملائمة لشحذ التفكير النقدي إزاء العلوم (العنصر 2.2)، سأختم البحث بعرض أوّلي لنموذج لإشاعة الثقافة العلمية، يُفْرِد النصيب الأوفى للممارسات الفلسفية الجديدة (العنصر 2.3).

## 1. التفكير النقدي:

### 1.1. ما التفكير النقدي؟

إذا كان من المتوافق عليه عامة أنه من المربح لنا جميعا أن يكون مواطنونا ممتلكين للتفكير النقدي، فإننا سرعان ما نختلف، بالرغم من ذلك، بخصوص الطبيعة الحقة لما يجب أن يكون مواطنونا ممتلكين له، أو بما يتعلق الأمر في الواقع بشحذه لديهم. ففي أفضل الأحوال، يبدو لنا التفكير النقدي، في الغالب، مفهوما فضفاضا قليلاً؛ إذ إنه يُرجع، بصورة مجملة، صدَى ممارسةِ نباهةٍ معينة ذات حدود غير واضحة تماما. ومن هذه الزاوية، سيكون الشخص المتميز بالتفكير النقدي ذلك الذي لا «يبتلع» (يصدق) بفرح كل ما يقدم إليه، بل، على العكس، يضعه قبل ذلك على محك عقله (أو على وجه الدقة يضعه على محك عقل مستخدم بصورة سليمة). وبغاية اقتراح توصيف أكثر دقة للمفهوم غير الذي يحثنا هذا المعنى المتداول على تبنيه، قد يكون من المفيد أن نسلك سلبيا؛ وذلك عبر استحضار نقيضين مترابطين في العادة لما ليس بالتفكير النقدي.

في منظور كهذا وبداية، سنتفق على القول إن التفكير النقدي، بالمعنى الدقيق، لا يمكن أن يُختزل إلى مجرد شك متضخم؛ فالتحلي بالتفكير النقدي لن يكون معناه التبني الجذري لموقف شكي في ضوئه سيكون

كل إثبات معرفي مشبوها. وإذا كان موقف كهذا يمتلك، حقا، جاذبية فلسفية معينة، كما يشهد على ذلك الاهتمام الذي حظي به من لدن غالبية الإبستيمولوجيين الذين توخوا دحضه منذ ظهوره لدى الإغريق - ونستحضر هنا بشكل خاص الوجه الشبه-أسطوري لبيرون الإيلي Pyrrhon d'Elis - فإن هذا الموقف، بالرغم من ذلك، لا مجال كلية للأخذ به. وإذا كان تعليل هذه الأطروحة الأخيرة بالكيفية المطلوبة، يستدعي استحضار اعتبارات من شأنها التأثير سلبا على وضوح الرهانات الفعلية للمقال، فإننا سنكتفي بسندها باستدلال الحس المشترك الآتي القائم على المثال: ليست كل إثباتات المعرفة مشكوكا فيها، من حيث إنه توجد إثباتات للمعرفة غير مشكوك فيها. وهذه عينة صغيرة وغير كاملة عن هذه الإثباتات غير المشكوك فيها: «توجد مجلة تسمى ديوتيم Diotime»؛ «أحد ما بصدد قراءة مقال (ذي طابع) فلسفي»؛ «أمتلك عينين»؛ وأخيرا (وهذا أكثر شجاعة) «الأرض كروية الشكل»[1]. إن الشك في حقيقة إثباتات كهذه، قد يكون تمرينا من المباح الانخراط فيه في سياقات ارتيابية معينة - بدءا بطبيعة الحال بالإبستيمولوجيا[2] - لكن في الغالبية الساحقة من السياقات التي نحيا حياتنا في صميمها، أن يكون المرء شكاكا إزاء إثباتات كهذه لا يعد ممارسة لتفكير نقدي ما، بقدر ما يعبر عن قصور في الحكم أو التمييز. وإذا شككتم (الآن) في واقعة أن أحدا ما بصدد قراءة (الآن) مقال (ذي طابع) فلسفي، فسيكون الاتصاف بالتفكير النقدي من عدمه - على الأقل من أجل سلامتكم الذهنية والجسمية - هو أقل انشغالاتكم في اللحظة الراهنة.

وبكيفية مماثلة لما سلف، سنتفق أيضا بيسر على أن التفكير النقدي لا يمكن أن يتطابق مع ضرب ممنهج من انعدام الثقة في كل كلام مسموح به، أو صادر عن سلطة ما، أو يحظى بالقبول، أو يحظى، بصورة أعم، بضرب من «الإجماع». فأن يتخذ المرء منذ البدء ودائما موقف «المفكر الحر المتمرد» في وجه قطيع من «الخِراف»، التي تتوافق حول أفكار سائدة، يتعارض تماما مع النهج النقدي، مادام أن أفكارا كهذه قد يثبت، فيما بعد، أنها مبررة ومعقولة تماما. فاعتقاد شخص بأن لوران Laurant أمير بلجيكا هو، في واقع الأمر، الابن غير الشرعي لجوني هاليداي Johnny Hallyday ونانا موسكوري Nana Mouskouri، للسبب البسيط المتمثل في رفض القبول بطيبة الرأي الشعبي السائد الذي مفاده أن الأمير هو بالأحرى ابن والديه الشرعيين -أي الملك ألبير Albert والملكة باولا Paola- لا يجعل ذلك هذا الشخص متصفا بـ «تفكير نقدي» معين، بالرغم من وضعيته كمستهدف ذي أولوية من لدن الاستخبارات الملكية.

---

1 هذه الإجابة التي تعود إلى الحس المشترك في تحديه للنزعة الشكية الجذرية، متداولة جدا بين الإبستيمولوجيين. وقد جرى الدفاع عنها بحزم من خلال إثباتات (مرفقة بحركة محددة) من قبيل: «هذه يَدٌ». انظر: Moore, G.E. (1939). Proofs of an External World. Proceeding of the British Academy, N°25, p. 273-300.

2 كون الإبستيمولوجيا تمثل هذا السياق الخاص حيث من المسموح ممارسة الشك المفرط دون خوف من الوقوع في السخافة، جرى الدفاع عنه مثلا من لدن فلاسفة معينين ينعتون بـ «السياقيين» « contextualistes ». انظر: Lewis, D.K. (1996). Elusive Knowledge. Australasian Journal of Philosophy, n°74, p. 549-567

نتوافق من دون عناء إذن، على هذه الفكرة المزدوجة: الاتصاف بالتفكير النقدي لا يكمن لا في الشك في كل مكان وزمان، ولا في عدم الثقة أو التوجس من كل خطاب سائد، غير أنه يتعين الانتباه: هذا التوافق لا ينبغي أن يحجب واقعة يتوجب الآن تسليط الضوء عليها، ويتعلق الأمر، بطبيعة الحال، بكون الشك والحذر يُعَدَّان شكلين ضروريين لممارسة التفكير النقدي؛ أو بصورة أعم، لكل ادعاء ببلوغ معرفة ما (مهما تكن من طبيعة علمية أو فلسفية أو تاريخية). فمن البديهي أن امتلاك تفكير نقدي يستدعي استخداما معينا للشك والحذر. لكن - وكما يتضح جليا من النقيضين المشار إليهما أعلاه - ليس أي شك أو حذر كيفما كان. وفي جميع الأحوال، ليس الشك الذي أثير لحد الآن. فالتفكير النقدي أبعد من أن يقتضي ممارسة الشك المفرط أو حجب الثقة الممنهج، بل يتطلب بالأحرى تنمية أو صقل القدرة على استخدام القدر الملائم من الشك وعدم التصديق، ذلك الذي يوصف أحيانا وعن حق بالقدر «المعقول». والسؤال الملح (والذي لا مجال لتلافيه) هو ببداهة كالآتي: ما هو هذا القدر الملائم من الشك وعدم التصديق الذي يتعين استخدامه، من أجل أن يكون الإنسان متصفا بتفكير نقدي؟

هذا السؤال نجيب عنه هنا بالكيفية الآتية: التحلّي بالنقد (بالكيفية الأصوب) أمام خطاب معطى يكمن في عدم الشك لا قليلا جدا -أي «ابتلاع» ذلك الخطاب أو التسليم به دون نظر- ولا كثيرا جدا -أي رفضه والإعراض عنه من الوهلة الأولى- بل بالقدر الذي تتطلبه مصداقية هذا الخطاب نفسه. ومن خلال ربط هذه الفكرة بالمفهوم المفتاح المتمثل في «الثقة»، هذه الأخيرة التي هي موضع رهان في ممارسة الشك كما في عدم التصديق، فإن هذه الإجابة يمكن إعادة صياغتها في صورة توصيف إيجابي للتفكير النقدي: التحلي بالتفكير النقدي يكمن في خلق تناسب بين مستوى الثقة في خطاب ما وبين مصداقية هذا الخطاب. وفي ضوء هذا التحديد لمفهوم التفكير النقدي، سنقول على سبيل المثال إن أحدا ما يتميز بالتفكير النقدي في الحالة التي يمنح فيها القليل من الثقة للخطابات التي تؤكد أن الأرض مستوية الشكل -لأن هذه الخطابات ذات مصداقية ضعيفة - لكنه يُفْرِد ثقة كبيرة للخطابات التي تقول بكروية الأرض؛ لأن هذه الخطابات ذات مصداقية كبيرة[3].

### 1.2. التفكير النقدي، هذا مما يكتسب بالتربية:

لقد حصلنا إذن على فهم إيجابي للتفكير النقدي، يمسك، بكيفية سليمة، بالدلالات المرتبطة بالمفهوم عامة، ومنها، على سبيل المثال، الحكم -التحلي بالنقد يعني الحكم المتبصر-، والتمييز -التفكير النقدي يتطلب فصلا بين الصالح والطالح. وبالرغم من ذلك، فإن هذا الفهم ما يزال يعتريه قصور حول نقطة حاسمة. كيف

3 لنسجل أنه ليس من المفيد الإحالة هنا بصورة مباشرة على فكرة «الحقيقة»، التي بحسبها، على سبيل المثال، سيكون علينا منح الثقة للخطابات الصائبة وعدم منحها للخطابات الخاطئة. ومفهوم «المصداقية» « fiabilité »، متصورا كـ «احتمال القرب أكثر من الحقيقة منه إلى الخطأ»، على درجة عليا من المرونة من حيث كونه يسمح بالتفكير في تدرج من الخطابات في درجة توافقها مع الواقع.

يمكن فعليا تحديد درجة المصداقية الحقة لخطاب بغاية تحديد قدر الثقة (أو بالمقابل قدر الشك أو حجب الثقة) الذي من المناسب تبنيه إزاءه؟

إن عدم امتلاكنا لـ «مقياس للمصداقية» Fiablomètre فطري من شأنه أن يتيح لنا أن نعرف مباشرة أي الإثباتين: «الأرض مستوية»، و«الأرض كروية الشكل»، يمثل الإثبات الأكثر مصداقية؛ إن ذلك بلا شك مظهر من المظاهر الكبرى لقصور وضعنا البشري المتناهي. فتحديد درجة مصداقية خطاب ما يتطلب، في جل الأحوال، أن يكون المرء معتادا على - وإذن متمرسا على معرفة - مختلف مؤشرات صلاحيته، والتي ليست، يا للأسف، مباشِرة أو معطاة. وفيما سيأتي، لن يكون الهدف إخفاء أو حجب هذا الإشكال، بل ستجري مقاربته في الوقت المناسب (وبالضبط في العنصر 2.3)، وذلك انطلاقا من خطابات من طبيعة علمية.

في تقرير صدر حديثا تحت إشراف إلينا باسكينيلي Elena Pasquinelli وجرالد برونر Grald Bronnet[4]، حُدِّدت أربع استراتيجيات تربوية من شأنها، إذا استخدمت بالكيفية السليمة، أن تفضي إلى تقوية التفكير النقدي كما وصف أعلاه. الاستراتيجيتان الأوليان منها - التربية على المضامين والتربية على الوسائط - وإن كانتا ذات أهمية، فإنهما لا تحظيان باهتمامنا هنا. أما الاستراتيجيتان الأخريان فأكثر ملاءمة للمقام - من حيث إنهما تفردان الحيز الأكبر للفلسفة. ويتعلق الأمر بالنسبة للمؤلفين بالتأكيد على أن التفكير النقدي السديد يتطلب تربية تنصب على المنطق وعلى نظرية الحجاج - وهذا من أجل امتلاك القدرة على التمييز بين الأبنية الحجاجية المقبولة وتلك التي تنطوي على مغالطات - كما يستدعي تربية على الإبستيمولوجيا - وذلك لتطوير القدرة على تحديد الأسباب الدالة على أن خطابا معرفيا معطى خطاب معلل-.

وإذا كانت التربية على التفكير النقدي تمر، بهذا الشكل، (وبالأخص) عبر الفلسفة (على الأقل في أبعادها المنطقية والإبستيمولوجية)، فإنه يتبقى علينا بيان أن الفلسفة المقصودة هنا هي تلك التي تتجسد بالأساس في الممارسات الفلسفية الجديدة، والتي يتعلق الأمر بإبراز أهميتها، على الأقل في السياق الذي ننشغل به راهنا، والذي يهم، خاصة، الخطابات (ذات الطبيعة) العلمية.

4 Pasquinelli, E. et Bronner, G. (2021). Éduquer à l’esprit critique. Bases théoriques et indications pratiques pour l’enseignement et la formation.VDEF-Eduquer-à-lesprit-critique-CSEN.pdf(reseau-canope.fr) [consultation le 3/12/2021].

## 2. الثقافة العلمية:

### 1.2. ما الثقافة العلمية؟

في مقال رأي صدر حديثا[5]، قدم فلاسفة وعلماء من مشارب مختلفة، توصية تروم تطوير وسائل إشاعة الثقافة العلمية في بلجيكا. وإذا كان مسعى نشر الثقافة العلمية ليس موضع خلاف، ولا يتمتع بأي أصالة أو جدة، فإن الفرضية المقترحة لسند هذا المسعى ذات أهمية أكبر بالنسبة إلى الموضوع الأول لهذا المقال. وهذه الفرضية، في جوهرها، هي كالآتي: إشاعة الثقافة العلمية لا يمر حصرا من خلال التربية على مضامين العلوم (معطياتها أو نتائجها أو نظرياتها)، ولكن أيضا وبالأخص من خلال تربية على طبيعة العلوم بحسب مختلف الأبعاد (السوسيولوجية، والتاريخية، وخاصة الفلسفية). وهذا يعني، بالأساس، تربية تنكب على إدراك أو فهم الكيفية التي تشتغل بها العلوم (من حيث إنها مؤسسات اجتماعية، ولكن أيضا بوصفها طرائق أو مناهج لإنتاج ولإضفاء الصلاحية على المعارف). ففي ضوء فرضية كهذه، امتلاك ثقافة علمية لا يستدعي إذن فقط وحصرا، طلب لعب دور «المختصين الهامشيين» « Insiders marginaux » « - ويتعلق الأمر، في الجوهر، بدور العلماء الهواة -، بل بالأحرى السعي لانتزاع دور «غير المختصين الأكفاء» « Outsiders compétents » - أي غير العلماء القادرون بالرغم من ذلك على التمييز والتعرف على الخطابات العلمية الأصيلة. إن الفرضية المقترحة تتمثل، ضمن هذا المنظور، وفي صورة شعار، في القول الآتي: «امتلاك ثقافة علمية لا يكمن في معرفة العلم، بقدر ما يمكن في التعرف عليه».

وفي ضوء الاعتبارات التي يأتي بيانها في العنصر 1.2 في علاقة بالمفهوم النوعي لـ «التفكير النقدي»، فإن إشاعة الثقافة العلمية قيد النظر هنا يمكن أن تدرك بالألفاظ الآتية: امتلاك ثقافة علمية يكمن (أيضا) في التحلي بالنقد إزاء الخطابات (التي تقدم كخطابات تتصف بـ) العلمية. والمثال الذي سبق استحضاره بخصوص الخطابات المتعارضة بصدد شكل الأرض يمكن توظيفه من جديد هنا. فإذا كنا نعبر عن امتلاك تفكير نقدي من خلال إفراد ثقة كبيرة للخطابات القائلة بـ «كروية الأرض» على حساب تلك القائلة بكونها «مستوية»، فإننا سنكون حائزين بالفعل على ثقافة علمية، إذا كنا قادرين، في الحركة نفسها، على التعرف

5 مقال « ‘Fake news’ et culture scientifique, une recommandation » نُشِر بجريدة Le Soir البلجيكية في 19 فبراير 2019
https://www.lesoir.be/281339/article/2020-02-19/fake-news-et-culture-scientifique-une-recommandation [consultation le 3/12/2021].

في الصنف الأول من الخطابات (الأرض كروية الشكل) من دون الصنف الثاني (الأرض مستوية) على خطابات علمية[6].

### 2.2. الرهان الحق: فيم تكمن المصداقية؟

في هذه المرحلة، الإشكال الذي أثير في العنصر 1.2 لا يمكن تلافيه. وهذا الإشكال وقد عُدِّل لكي يتلاءم مع الحالة الراهنة للمناقشة، والتي تأتى فيها الوقوف على العلاقة القائمة بين الثقافة العلمية والتفكير النقدي، يمكن أن يُصاغ بالكيفية الآتية: كيف يمكن أن نعلم، وبالأخص انطلاقا من وضعية «غير المختص»، أن خطابا معطى خطاب علمي (بصورة أصيلة وليس خادعة)، وإذن له مصداقية؟

إن هذا السؤال، مهما يكن مناسبا للمقام، ليس لا جديدا ولا أصيلا. إنه، على وجه الدقة، متجذر في مفكرة الإبستيمولوجيين منذ سنوات عديدة (وإلا، إن ذهبنا إلى ما هو أبعد بهذه الخاصية، منذ قرون عديدة). وهذا تستفاد منه وفرة في مسالك الإجابة، التي سبق وأن كانت موضوع تقييمات نقدية. والرهان هنا لا يكمن، بطبيعة الحال، في الوقوف على الوضعية الراهنة للبحث، حتى وإن كان ذلك بصورة جزئية. وأكثر تواضعا من هذا، يتعلق الأمر بالتمييز في هذه المسالك بين ضربين مختلفين وربطهما بحقلي بحث وبإشكاليتين فلسفيتين نوعيتين، وهذا من زاوية أن شخصا راغبا في الانكباب على ذلك من منظور الممارسات الفلسفية الجديدة يمكنه من معرفة أين ينبغي البحث بالضبط، من أجل تشكيل علبة أدواته أو إغنائها.

من جهة، ومن زاوية ما نسميه، انطلاقا من أسباب صارت بديهية مما تقدم، بـ «المصداقية الداخلية»، يمكن أن نعتبر كمؤشرات لصلاحية خطاب معطى كل هذه الخصائص أو المميزات الملازمة له، والتي تتظافر في بيان ما يجعل هذا الخطاب معللا بصورة سليمة وكافية. وعندما يكون هذا الخطاب من طبيعة علمية، فإن البحث عن سمات المصداقية الداخلية هذه يفتحنا على إشكالية شهيرة، تعرف بإشكالية «الفصل» « la démarcation ». وهذه الإشكالية مميزة للمجال الخاص للبحث الذي هو الإبستيمولوجيا المنكبة على العلوم (كفرع من الفلسفة العامة للعلوم)، وتكمن بالأساس في البحث عن معايير في ضوئها يمكن القيام بفصل بين العلوم [الفعلية] والعلوم الزائفة. وبكلمات أخرى، يتعلق الأمر هنا بموضوع للبحث الفلسفي ينشد بيان الشروط التي «يكون بها العلم علما»، وإذن، ما يجعل خطابا يدعي العلمية، بالنظر لكونه معللا بصورة كافية، خطابا ذا مصداقية.

---

6 القراء اليقظون أدركوا بلا شك هنا وجود مفترض ضمني (متبنى لكن من دون مساءلة) مفاده أن علمية خطاب ما يثير مسألة مصداقيته. وهذا المفترض يمكن تعليله بكيفية سريعة (وإن لم تكن جد «نزيهة»، لكن هذا كافٍ في السياق الراهن) بالإشارة إلى أنه ليس من غير الملائم تعريف العلم كمشروع أنجز تاريخيا وسوسيولوجيا بكيفية تقوم على إنشاء الخطابات الأكثر مصداقية على الخواص الوقائعية factuels الخالصة للعالم. و«عدم نزاهة» تعليل كهذا تعود لطبيعته الشرطية مظهريا. لكن هذا المظهر يمكن إزالته بمجرد مطابقة -وهذا ليس بغير المعقول- مصداقية الخطابات الوقائعية بالقدرة على مقاومة الإمكانات الخاطئة انطلاقا من المعطيات الأكيدة المجمعة في فترة معطاة، وهذا ما يكمن فيه بالضبط رهان كل نهج علمي. والقراء اليقظون يمكنهم إذن أن يشعروا بالاطمئنان.

لنستحضر بعض الأمثلة عن شروط كهذه بغاية إضفاء طابع محسوس أكثر على هذه الأفكار التي هي في مجملها محض نظرية. فعلى خطى فلسفة العلوم «الكلاسيكية» لكارل بوبر Karl Popper[7]، سنقول عن خطاب إنه علمي إذا كان يعكس ويعبر عن نزعة غير دوغمائية تتمثل في أن هذا الخطاب يكشف بطواعية عن الإمكانات التي من شأنها (إن وجدت) دحضه أو تفنيده. إن معيارا كهذا يبدو، منذ الوهلة الأولى، ذا دلالة. فخطاب معطى سيكون أكثر مصداقية بقدر ما يصمد أما الدحض أو التفنيد، في الوقت الذي يُبْرِز - هو نفسُه بدل أن يخفي أو يحجب - جوانب الضعف الكامنة فيه. وفي ضوء رؤية كهذه للأمور، فالخطابات القائلة بالطبيعة المستوية للأرض، سيتضح أنها، في الغالب، غير علمية - وإذن تفتقر إلى المصداقية، وإذن غير جديرة بثقة شخص ذي تفكير نقدي أو ذي ثقافة علمية - ما دام أن الإمكانات المتعددة التي من شأنها أن تكشف خطأ هذه الخطابات رُفضت واستُبعدت بصورة ممنهجة بغاية الحفاظ عليها كمعتقد dogme. والأمثلة عن مسعى تحصين الخطاب هذه شهيرة: فلمواجهة التنبؤ الداحض القائل إن كل تنقل لامتناه في خط مستقيم، يجب أن يفضي، في النهاية، إلى «حد» للأرض، يستحضر القائلون بالطبيعة المستوية للأرض وجود حقول مغناطيسية مجهولة المصدر، تؤدي إلى الانحراف غير المدرك لهذه التنقلات بعيدا عن «حدود» الأرض، التي تظل، بهذا الشكل، عصية أبدا على الملاحظة. وضد صور الأقمار الاصطناعية التي تُظهر كوكبا كروي الشكل، يتحججون بمؤامرة من وكالة الفضاء الأمريكية NAZA، مؤامرة تقوم على التلاعب بآلات التصوير أو بالأقمار الاصطناعية نفسها. وإزاء الرؤية الواضحة لتقوس في الأفق أثناء الطيران على علو مرتفع، يقول هؤلاء بهلوسات (تصيب الركاب الذين يتوهمون رؤية هذا التقوس) تعود إلى نقص الأوكسجين في الطبقات العليا من الغلاف الجوي، إلخ.

وهذا مثال آخر عن مؤشر المصداقية الداخلية: فخطاب ما سيكون علميا أكثر، وإذن ذا مصداقية، إذا كان منسجما أو متوافقا مع خطابات أخرى سبق عدُّها، لأسباب مغايرة، ذات مصداقية[8]. وإذا شئنا إلقاء الضوء على هذا المعيار انطلاقا من مثالنا، فسنلاحظ أن الخطابات المدافعة عن الطبيعة المستوية للأرض هي بالفعل خطابات محدودة المصداقية، لأنها غير منسجمة أو متوافقة مع العديد من المعارف المقبولة أو المثبتة. فإذا أقررنا مثلا أن الكواكب تشكلت (وتحافظ على وجودها وشكلها) بوساطة تراكم جاذبي للمادة، وقبلنا الفكرة القائلة إن الجاذبية قوة ذات تَماثُل دائري، فإن هذا يترتب عنه أن الأجسام الضخمة (ذات الحجم الكافي، مثل الكواكب والنجوم) يجب أن يكون شكلها كرويا (تقريبا). فإزاء اعتبار كهذا، الخطابات المنافِحَة عن الطبيعة المستوية للأرض ليست إذن، منسجمة أو متسقة مع فهم معين لما تكونه الجاذبية، وعدم الاتساق

7 انظر بصورة خاصة Popper, K.R. (1973[1934]. La logique de la découverte scientifique. Payot.

8 يظهر معيار كهذا، على سبيل المثال، في قائمة الفضائل الإبستيمية للنظريات العلمية التي قدمها طوماس كون Thomas Kuhn في:

Kuhn, T. (1977). Objectivity, Value Judgment, and Theory Choice. The Essential Tension : Selected Studies in Scientific Tradition and Change. The University of Chicago Press.

هذا ليس في صالح هذه الخطابات (على الأقل إلى غاية أن يصبح من المشروع التفكير بأن هذا الفهم للجاذبية خاطئ تماما).

إن هذه الفكرة الأولى (التي بحسبها توجد مؤشرات للمصداقية الداخلية تسم الخطابات العلمية، ألقى عليها الضوء تقليد فلسفي انكب على إشكال الفصل)، يشوبها، بالرغم من ذلك، إشكال بيّن؛ وذلك عندما يتعلق الأمر بالتفكير في وضعها موضع تطبيق، في إطار مسعى نشر الثقافة العلمية: هذان المعياران يكتسيان طابعا تقنيا ومعقدا بالغا. فتقييم المعيار الذي يتعين على خطاب ما استيفاؤه ليس في متناول الإنسان غير المتخصص إلا نادرا؛ أي إنه ليس في متناول المستهدف أو المستهدفة بنشر الثقافة العلمية. وإذا كان الأمر يتعلق، على سبيل المثال، بمعرفة ما إذا كان إثبات معطى حول موضوع في علم الفيروسات virologie علميا وإذن ذا مصداقية، فقد لا نكون في حاجة إلى الانكباب على الأدبيات المتخصصة في الموضوع، من أجل الكشف فيها عن آثار هذه المؤشرات التي قام تقليد في فلسفة العلوم بتحديدها.

توجد، لحسن الحظ، استراتيجية من اليسير استثمارها من أجل هذه الغاية، والتي تفتحنا على صنف ثانٍ من مؤشرات المصداقية، يمكن نعتها، في مقابل سابقتها، بالمؤشرات «الخارجية». فالرهان لم يعد هنا كامنا في وضع الأصبع على الفضائل الملازمة لخطاب معطى، والتي تجعله ذا مصداقية، بل بالأحرى إلقاء هذه المسؤولية الإبستيمية على عاتق مصدر منظور إليه بوصفه قادرا على القيام بذلك نيابة عنا (وإعلامنا عن ذلك بنزاهة). ويتعلق الأمر، في الجوهر، وفي إطار روح تقسيم العمل المعرفي في عالم مُفْعَم بخطابات أكثر فأكثر عددا وتخصصا، وأمام خطاب يدعي العلمية، بِطَرْح السؤال الآتي: هل مصدر خطاب كهذا -عالِم أو عالِمة - ذو مصداقية؟

إن هذا السؤال، بدوره، كان موضوع أبحاث مستفيضة، وهذه المرة في الحقل الخاص للإبستيمولوجيا الاجتماعية؛ وبصورة خاصة، في صلة بإشكالية البحث التي تعرف بـ «الخبرة المتخصصة» l'expertise[9]. فالسؤال هنا لا يتعلق بمعرفة ما إذا كان خطاب معطى يحوز شروط التعليل المطلوبة من أجل أن يُصدَر الحكم عليه بأنه علمي، بل بالأحرى بمعرفة ما إذا كان الخبير المختص (أو الخبيرة المختصة) الذي ينقل إلينا هذا الخطاب، جدير بأن يضمن لنا علميته. وعلى هذا المستوى، وكما هو الشأن في المستوى السابق، يمكن استحضار أمثلة عملية، من شأنها أن تتيح العديد من طرائق إضفاء الثقة بالقدر المناسب على الخطابات العلمية[10]. وهذه الطرائق التي تتخذ صورة مؤشرات للصلاحية يتعين استخدامها من أجل منح ثقتنا بالقدر

9 يتحدث أحيانا أيضا عن إبستيمولوجيا «الشاهد»، فشهادات الغير تمثل مصدرا خصبا للمعارف تضاف إلى المصدرين الذي عكف التقليد الفلسفي على دراستهما، ويتعلق الأمر بالتجربة (مسلك النزعة الإمبريقية أو التجريبية) والعقل (مسلك النزعة العقلانية).

10 انظر على سبيل المثال:

Anderson, E. (2012). Democraty, Public Policy, and Lay Assessments of Scientific Testimony. Episteme, N°8, p. 144-164

المطلوب، إنما تكمن في أن مصدر المعلومة يمتلك الكفاءة التي تؤهله لضمان التعليل الداخلي السليم لهذه المعلومة - هل تلقى هذا المصدر تكوينا في الحقل المعني؟ وهل يحظى باعتراف زملائه؟ وهل أجيزت أعماله في الموضوع؟ - وتكمن أيضا في النزاهة المطلوبة لنقل المعلومة دون تشويه أو قلب - هل للمصدر ماضٍ في سوء التصرف؟ وهل يقع تحت طائلة صراعات المصالح التجارية أو السياسية أو الإيديولوجية؟

جلي إذن، أن الإبستيمولوجيا لم تكن صامتة إزاء مختلف الوسائل التي بوسعنا استخدامها بغاية تحديد درجة المصداقية (الداخلية أو الخارجية) لخطاب علمي معطى. ويتبقى الآن أن هذه الوسائل يتعين عليها مغادرة الدائرة المتخصصة للإبستيمولوجيين، لكي تلج «الساحة السقراطية» حيث يمكن لأي كان حيازتها واستخدامها.

### 3.2. نموذج «القصور» « déficit » في مواجهة نموذج NPP:

إن أقل ما يمكننا قوله، بهذا الصدد، لسوء الحظ، هو أن النظام التربوي (على الأقل في بلجيكا) يبدو عصيا إزاء عملية نقل كهذه. فهذا النظام يظل متقوقعا بشدة على تصور لنشر الثقافة العلمية يطلق عليه أحيانا «نموذج القصور»، الذي يحيل على الفكرة القائلة إن اكتساب العلم يتطلب حصرا تغطية النقص في معرفة النتائج العلمية لدى الجمهور من عامة الناس. وفي ضوء نموذج كهذا، أولئك الذين توكل إليهم مهمة نشر الثقافة العلمية - المدرسون، الشُّرَّاح، الوسطاء العلميون، إلخ - يؤدون إذن دورا مشتركا، يتمثل في تغطية هذا «النقص» لدى الناس من خلال مَدِّهِم بمعارف يفتقرون إليها. وفي منظور كهذا، ومن أجل قول ذلك بصورة مبتذلة: إذا كنتم ترغبون في حيازة ثقافة علمية، فعليكم إذن متابعة دروس في العلم (في المدرسة أو خارجها)، وإذن قراءة كتب علمية (مبسطة في الغالب)، وإذن الإنصات إلى محاضرات أو برامج حول العلوم (مبسطة في الغالب). وباختصار، يتعين عليكم بذل الجهد، بقدر ما تستطيعون، لكي تصبحوا ما سبق أن أطلقنا عليه «مختصين هامشيين»، أي أشخاصا يمتلكون، في المتوسط، بعض الأفكار العلمية (وفي جل الأحيان يحوزون أفكارا علمية غير متمثلة بصورة جيدة).

إن مقاربة كهذه لا يمكن أن تكون كافية، أو على الأقل، لا يمكن أن تكون المقاربة الأفضل. فمن المنظور الأعم لتربية على التفكير النقدي، تكمن هذه المقاربة في الاقتصار على الاختيار المقصود لاستخدام مسلك وحيد من بين المسالك الأربعة التي حُدِّدت في العنصر 2.1، ويتمثل في التربية على المضامين. والنموذج البديل الذي يتعلق الأمر هنا بالإشارة إليه - لنطلق عليه هنا «نموذج NNP»[11]- لا يتعارض مع نموذج القصور الموصوف أعلاه، بل يضاف إليه أو يتكامل معه؛ وهذا النموذج البديل يقترح نشر الثقافة العلمية أيضا، عبر استكمال التعلمات الضرورية للمضامين، بتعلم ينصب على طبيعة ونمط اشتغال العلم؛ ذلك أنه

11 على العكس مما يمكن اعتقاده، تدل « NPP » هنا على « Né au pôle philo » (ولد في قطب الفلسفة) (www.polephilo.be).

فقط من خلال تربية تعطي الأفضلية للإبستيمولوجيا، وبالأخص بواسطة تكوين على التعرف على مؤشرات المصداقية (العنصر 2.2 أعلاه)، يمكن تحقيق نشر فعلي للثقافة العلمية وفق الموجهات التي عُرِضت في العنصر 1.2 (مع إعطاء الأفضلية لجعل عامة الناس «غير مختصين أكفاء»)[12].

لكن، كيف يمكن استخدام هذا النموذج البديل على مستوى الممارسة؟ في هذه المرحلة من البحث، يأتي الدور على الممارسات الفلسفية الجديدة، من حيث إن هذه الأنماط من التربية الفلسفية (ها هنا في بعدها الإبستيمولوجي) من شأنها أن تقيم قطيعة مع النموذج العمودي للمختصين «العالمين» الناقلين لعلومهم إلى غير المختصين «غير العالمين».

فعلى طريقة ورشات المشاركة Ateliers participatifs، حيث ينصب الاهتمام أكثر على التعلمات القائمة على تطوير قدرات التفكير، وعلى تنمية التفكير بالكيفية السليمة، فإن عالَما كاملا من الإمكانات ينفتح من أجل استكشاف أشكال التوجه أو التقدم، ليس نحو المعرفة، بل نحو كفاية التعرف على ما هو جدير بأن يعد معرفة (وهو ما يفترض أن يحظى منا بالثقة).

عند هذا المستوى أيضا، يتوجب عليَّ الإقرار بحدود تجربتي الخاصة، تاركا القراء على ما هم عليه من جوع. فالأكيد أنني ليس بوسعي تقمص دور البيداغوجي -أو حتى دور المنشط الفلسفي- من أجل إلقاء الضوء على الصيغ الأفضل لوضع نموذج « NPP » موضع تطبيق. وأكتفي هنا، بتواضع، بفتح باب - الثقافة العلمية تتطلب قدرات نقدية بقدر ما (وإلا أكثر مما) تتطلب معرفة، والاهتمام بتطوير قدرات كهذه يتناسب ويتوافق تماما مع الممارسات الفلسفية الجديدة - وأدع المجال الآن للمقتنعين بهذا القول بتخطي هذا المستوى واستكمال ما لم أستطِعْه.

12 لنسجل أن مشروعية نموذج NPP ليست نظرية فقط. فدراسات إمبريقية أنجزت حديثا تشير بالفعل إلى أن تعلما للإبستيمولوجيا يشيع الثقافة العلمية، فضلا عن كونه يدحض حكما مسبقا خاطئا لنموذج النقص، يتمثل في «عملية التضايف» التي بحسبها يؤدي تعلم المضامين العلمية إلى تعلم الإبستيمولوجيا مجانا (فهم اشتغال العلوم «يتخلل» طبيعيا تعلما لنتائج العلوم). وفي واقع الأمر، من الممكن أيضا أن تنشأ علاقة تعزيز معكوسة، تتجه من الإبستيمولوجيا إلى العلوم، بالمعنى الذي تفضي التربية على الإبستيمولوجيا إلى كفاءة أعلى في تملك المضامين العلمية. انظر على سبيل المثال:

Michel, H. & Neumann, I. (2016), Nature of science and Science Content Learning. Science & Education, N°25, p. 951-975

## خاتمة:

وضعت لنفسي كهدف رئيس، في هذا المقال، الدفاع عن أن الثقافة العلمية شكل خاص لممارسة التفكير النقدي - منظورا إليه كثقة تُسْدى بتبصر- أكثر مما هي معرفة بالمعنى الدقيق. وبعد تقديم الخطوط العريضة لهذه الفرضية، استحضرت جوانب معينة من البحث الإبستيمولوجي المعاصر، الذي يمكن أن يكون مصدرا للأدوات والوسائل الكفيلة بإشاعة الثقافة العلمية متصورة بهذه الكيفية. وعلى هذا الأساس، دافعت عن الفكرة القائلة إن النهج المعتمد في نشر الثقافة العلمية في التعليم (البلجيكي) يتسم بالمحدودية. وسيكون من المجدي التفكير في الأشكال العملية لتطبيق نموذج بديل يبدو مناسبا وعلى مقاس الممارسات الفلسفية الجديدة؛ وهذه ما يشكل فرصة سانحة لهذه الممارسات للتجذر، الآن أكثر من أي وقت مضى بالنظر للإشكاليات العلمية التي تشغل بانتظام واجهة الأحداث، في مجال اجتماعي هو في أمس الحاجة إليها.

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

info@mominoun.com
www.mominoun.com

All rights reserved © 2023

جميع الحقوق محفوظة © 2023